المعرفة السوسيولوجية خارج الجامعة
التجربة الأمريكية نموذجا

أ/ ياسين سعادة
علم الاجتماع
جامعة ابن خلدون، تيارت

أوّلا وقبل بداية العرض وجب تحديد المفاهيم، فما المقصود بالمعرفة السوسيولوجية؟ ثم لماذا استعملنا مصطلح المعرفة السوسيولوجية بدل السوسيولوجية خارج الجامعة؟

الجواب بسيط، هو أنّه في أمريكا، الباحثون الاجتماعيون الأوائل لم يأخذوا السوسيولوجيا الأوروبية كمعطى غير قابل للنقاش - مثلما نفعله نحن اليوم- بل اعتمدوا على معارفها، وصاغوها بطريقتهم الخاصة. فالسوسيولوجية في أمريكا هي مهارة – un savoir faire- أكثر من أي شيء آخر. ثم إنّ العرض يتحدّث عن معرفة خارج الجامعة، إذ إنّ السوسيولوجيا علم أكاديمي يبقى في الجامعة بينما المعرفة المستخلصة منها فهي التي تخرج خارج الجامعة.

قبل الحديث عن التجربة الأمريكية وجب الحديث أوّلا عن التجربة السوسيولوجية كمعرفة إنسانية، ثم التجربة السوسيولوجية في أمريكا، لنصل في الأخير إلى التجربة الأمريكية كنموذج حقيقي لمعرفة علمية فرضت نفسها في واقع سياسي، اجتماعي واقتصادي متميّز.

التجربة السوسيولوجية كمعرفة إنسانية:

فلنبدأ من البداية، والبداية طبعا هي ماهية السوسيولوجية: دون إعادة كلام كرّر كثيرا نقول مثلما قال أنطوني غيدنز Anthony Giddens (المستشار السابق لطوني بلير) "إنّ علم الاجتماع معني بدراسة الحياة الاجتماعية،و الجماعات، والمجتمعات الإنسانية. إنّه مشروع مذهل وشديد التعقيد لأنّ موضوعه الأساسي هو سلوكنا ككائنات اجتماعية. ومن هنا فإنّ نطاق الدراسة الاجتماعية يتّسم بالاتساع البالغ،و يتراوح بين تحليل اللقاءات العابرة بين الأفراد في الشارع من جهة، واستقصاء العمليات الاجتماعية العالمية من جهة ثانية".

نلاحظ في تعريف غيدنز هذا أنّنا ابتعدنا كثيرا عن التعريفات الأولى الكلاسيكية لعلم الاجتماع التي حدّدها الرواد الأوائل لهذا العلم من أمثال هربرت سبنسر Herbert

SPENCER، إميل دوركهايم Emile DURKHEIM وغيرهم. و يرجع هذا الفرق، وهذا التحوّل بالأساس إلى أنّ علم الاجتماع هو معرفة واقعية بالواقع، الذي هو دائما في تحوّل وتغيّر إلى درجة أنّ العديد من علماء الاجتماع يعتبرون أنّ التغيّر هو الثابت الوحيد في المجتمع.

غير أنّ علماء الاجتماع على اختلاف توجّهاتهم، ومشاربهم اتفقوا على منفعية هذا العلم. فهو علم نافع لأكثر من سبب، حيث إنّ غيدنز يرى أنّ "علم الاجتماع يساعد في فهم المجتمعات الحديثة، وفي الوقت ذاته يساهم في تحوّله"، أمّا دوركهايم فقد ذكر ما يلي:

« nous estimons que nos recherches ne méritent pas une heure de peine si elles ne devaient avoir qu'un intérêt spéculatif »

"نعتقد أنّ أبحاثنا لا تستحق ساعة عناء إن لم تكن لها إلاّ منفعة تأمّلية". ثم إنّ ابن خلدون نفسه خلص في حديثه عن الأسباب التي جعلت الباحثين يعزفون عن الخوض في مسائل العمران البشري إلى المنفعة القليلة المستخلصة منها حيث ذكر: "وكأنّه (أي علم العمران) علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة، ما أدري، ألغفلتهم عن ذلك... وإذا كانت كل حقيقة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه. لكن الحكماء لعلّهم إنّما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات، و هذا إنّما ثمرته في الأخبار فقط كما رأيت، وإن كانت مسائلة في ذاتها وفي اختصاصها شريفة لكن ثمرته تصحيح الأخبار وهي ضعيفة". أمّا آلان توران Alain TOURAINE فقد ذكر: "لا أتصوّر أن يكون للسوسيولوجيا هدف آخر غير المساعدة في وظيفية أنساق الفعل التي تدرسها

"«je ne conçois pas que la sociologie puisse avoir d'autre but que d'aider au bon fonctionnement des systèmes d'action qu'elle étudie »

علم الاجتماع إذا علم نافع يدرس الواقع المتغيّر، لكنّنا نشهد اليوم على تحوّل عميق في المجتمعات الحديثة نتيجة الظاهرة الاتصالية التي حوّلت خارطة العالم المعرفي- الثقافي.

إنّ خارطة التيارات السوسيولوجية اليوم تظهر هذا التحوّل الذي بدأ في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي حيث نلاحظ هذا التنامي للفردانية التي حوّلت من طرق التفكير حول الاجتماعي في حدّ ذاته

« l'individualisme croissant a modifier les façons de penser le social »

في هذا المجال اقترح لوي دومون Louis DUMONT في كتابه الشهير "محاولة في الفردانية المعاصرة" « essai sur l'individualisme moderne » أن نميّز بين المجتمعات التقليدية الشمولية- التي تعطي قيمة أكثر للنظام، الهرم الاجتماعي، الثروة العقارية، والعلاقات بين

الناس والمجتمعات المعاصرة الفردانية التي تثمّن الحريّة والمساواة مع وجود الثروة المتحرّكة التي تفصل بين الاقتصادي والاجتماعي.

المجتمعاة المعاصرة تعرف هي الأخرى تطوّرات واضحة تنتقل فيها من الحالة الصناعية إلى مرحلة ما بعد الصناعة. ولقد لخّص عالم الاجتماع الأمريكي دانيال بال Daniel BELL أطروحته التي اشتهر بها المعنونة " نحو مجتمع ما بعد الصناعي"-*« vers une société post-industrielle »* بما يلي:

« la société post-industrielle comporte trois dimensions, le passage d'une société de biens à une société de services, le développement d'une vaste classe de cadres et de techniciens, et l'importance de la connaissance théorique comme source d'innovation et d'analyse politique dans la société »

"يحوي المجتمع ما بعد الصناعي على ثلاثة أبعاد: الانتقال من مجتمع الأملاك إلى مجتمع الخدمات، تطوّر طبقة هائلة من الإطارات والتقنيين، وأهميّة المعرفة النظرية كمصدر للإبداع وللتحليل السياسي في المجتمع"

التجربة السوسيولوجية في أمريكا:

رغم هذا التطوّر الهائل اليوم في واقع المجتمعات الإنسانية، ورغم التطوّر الهائل كذلك في المعرفة السوسيولوجية إلاّ أنّ المفاهيم التي طرحها رواد علم الاجتماع الأوائل تبقى محورية في الطرح السوسيولوجي العام مثل: التضامن الاجتماعي عند دركهايم، الفعل العقلاني عند فيبر، أو الأفعال غير المنطقية عند باريتو. كذلك الحال بالنسبة إلى الإطارات النظرية التي يقسّمها البعض إلى تيارات نظرية ثلاثة هي:- 1- التيارات الوظيفية- البنيوية، - 2- التيارات الصراعية، و3- التيارات التفاعلية.

بينما يقسّمها البعض الآخر إلى قراءات ست وهي: القراءة الوظيفية، القراءة التفاعلية، القراءة البنيوية، القراءة الفردانية، القراءة الاستراتيجية للواقع، و أخيرا القراءة الفعلوية.

السوسيولوجيا إذن تغيّرت كثيرا في أطروحاتها لكنّها لم تتغيّر في جوهرها حيث بقيت الثنائية المميّزة لها والتي لم تستطع إلى اليوم تجاوزها ألا وهي ثنائية الرؤية: من جهة الرؤية الكلاسيكية الوضعية التي ولّدت الاتجاهات الشمولية، ومن جهة ثانية الرؤية الرومانسية الذاتية التي ولّدت الاتجاهات الفردانية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ماذا عن التجربة السوسيولوجية في الولايات المتحدة؟ وما هو موقعها من هذا الزخم النظري الأوروبي؟

إنّ الفروقات في تصوّر السوسيولوجيا كانت كبيرة إلى درجة أنّها حدّت من تطوّر الاتصالات والتبادلات بين مختلف الاختصاصات والأطروحات، ولهذا السبب ربّما سعت الولايات المتّحدة بعد الحرب العالمية الأولى إلى جعل السوسيولوجية منفعية تتميّز بصفة بحثية ممزوجة بصفة التوجيه الحكومي، وهو ما جعل البحث السوسيولوجي يتطوّر، والمعرفة السوسيولوجية تزداد وتتراكم في أمريكا تاركة أوروبا غارقة في متاهات الطرح النظري إلى غاية الستينيات من القرن الماضي.

كانت السوسيولوجية الأمريكية في بدايتها لصيقة بالمشروع السياسي الكبير في الولايات المتحدة ألا وهو مشروع "الإصلاح الاجتماعي"« la réforme sociale » الذي كان يعبّر عن الرغبة في تحسين الظروف المعيشية للجميع عن طريق الفهم الأفضل للحقائق الاجتماعية. وتظهر الجريدة الأمريكية لعلم الاجتماع « the American journal of sociology » التي أسّست عام 1895م في أوّل قسم لعلم الاجتماع بجامعة شيكاغو (الذي تأسّس بدوره عام 1892 بميزانية تقدّر ب 251 مليون دولار) هذا الطرح حيث ذكر ألبيون سمول Albion SMALL

« aider tous les hommes intelligents à avoir la vision la plus large possible de leurs droits et de leurs devoirs de citoyens(…) et traduire la sociologie dans le langage de la vie de tous les jours, de manière à ce qu'elle(…) apparaisse(…) comme un moyen d'augmenter notre compréhension présente des réalités sociales, de manière à améliorer l'organisation de la promotion du bien-être général et servir de support à toute tentative avisée d'assumer le bien être de l'homme »

"مساعدة كل الأشخاص الأذكياء على أن يكون لهم أوسع نظرة ممكنة لحقوقهم، وواجباتهم كمواطنين (...) وترجمة علم الاجتماع إلى لغة الحياة اليومية بطريقة نجعلها تظهر كوسيلة لرفع مستويات فهمنا الحالي للحقائق الاجتماعية بطريقة تمكّننا من تحسين نظام تعزيز الرفاه العام، وخدمة كل المحاولات الهادفة لضمان رفاه الإنسان".

بالنسبة إلى مؤسّسي السوسيولوجيا الأمريكية، إنّ السوسيولوجيا يجب أن تكون نافعة لأنّ ذلك يعد ضمانا لاستمرارها وتطوّرها، حيث اعتبر سمال Small وأتباعه أنّ السوسيولوجيا هي في نفس الوقت وسيلة من وسائل الصراع ضد نتائج سياسة اللامبالاة. وأيضا، وبطريقة فيها نوع من الخفاء هي وسيلة لمجابهة انتشار الاشتراكية والأصولية.

عرفت الولايات المتحدة في العشرينيات من القرن الماضي جملة من المشاكل الاجتماعية، حيث كانت مسرحا لتناحرات، وصراعات عدّة، خاصة في المدينة أين تصاعدت السلوكات الاجتماعية الرامية إلى إضعاف الحركات الاحتجاجية، لا سيما من أصحاب المصانع والشركات الإنتاجية. وهذا ما أدّى إلى مراجعة كل المكتسبات الاجتماعية السابقة. في هذا السياق قلّ تأثير الخطاب الإصلاحي لعلماء الاجتماع، فانتقد العديد منهم بصورة عنيفة وصلت

إلى حد الإقالة من الجامعة مثل ما حدث مع وليام توماس William Isaac THOMAS (صاحب أوّل دراسة ميدانية لمدرسة شيكاغو) الذي أُقيل من جامعة شيكاغو في نفس السنة التي وضع فيه تقريره النهائي عن دراسته الشهيرة "**الفلاح البولوني**" سنة 1918.

بعد هذه المشاكل التي عانت منها الولايات المتّحدة، والتي عانى منها كذلك علماء الاجتماع، غيّر هؤلاء من أسلوبهم التعاملي، ومن خطابهم العلمي خاصة. فانتهجوا استراتيجية الهجوم لحماية مكتسباتهم،و لإيجاد مناصب الشغل للمتخرّجين في علم الاجتماع حفاظا على الاختصاص الأكاديمي، فاتجهوا إلى المنظّمات والجمعيات الخاصة لتمويل مشاريعهم (مثل ما حدث مع لازارسفلد الذي موّلت أعماله مؤسّسة روكفيلار Rockefeller). في هذه الفترة بالذات تغيّر خطاب علماء الاجتماع في أمريكا ليهدف إلى إثبات نجاعة البحوث السوسيولوجية الميدانية (في هذه الفترة انطلقت أولى الدراسات الميدانية في المجال الصناعي).

بعد الأزمة الاقتصادية العالمية عام 1929 ظهرت الاستراتيجية الجديدة للدولة الرامية إلى استثمار المعرفة السوسيولوجية والسيكولوجية لتأويل التغيّرات، ورسم ميولات المجتمع الأمريكي، لإيضاح الاختيارات السياسية الواجب القيام بها. هنا ظهر الاتجاه الحيادي في السوسيولوجيا الأمريكية الذي يمثّله بحق وليام أوغبرن William OGBURN الاختصاصي في الاتجاهات الكميّة (بعدما كانت السوسيولوجيا إصلاحية وإنسانية). وفي هذه الفترة أيضا أُثير النقاش حول التصوّر العام لعلم الاجتماع، وحول مهنة عالم الاجتماع، فهل هو مختص في "الاجتماعي" expert du social ؟ أم هو متدخّل اجتماعي intervenant social ؟ كما أُثير النقاش حول علاقته (أي عالم الاجتماع) مع أصحاب الأوامر والقرارات، وحول المجال المخصّص للدراسة السوسيولوجية.

استمرّ الحال على هذا الأمر إلى نهاية الثلاثينيات، أين انتقل مركز القوّة في علم الاجتماع الأمريكي من شيكاغو إلى جامعتي كولومبيا في نيويورك Columbia/New-York، وهارفارد في بوسطن Harvard/ Boston . الأولى اختصّت بموضوع الثقافة والشخصية، بالثقافوية والأنثروبولوجيا الثقافية، أمّا الثانية فلقد اختصّت بالتيارات النظرية الاجتماعية.

المعرفة السوسيولوجية خارج الجامعة في أمريكا:

1- **المعرفة السوسيولوجية في دوائر الشرطة المحلّية والفدرالية**: أوّل مثال عن التقاء السوسيولوجيا بالطلب الاجتماعي هو النجاح الهائل الذي حقّقته نظرية " النافذة المكسورة" « Brocken Windows » « la vitre brisée ».

لم يصدّق جيمس ويلسن James WILSON وجورج كيلينغ Georges KELLING وهم يعيدون في مقالهم المعنون "النافذة المكسورة" أفكار جيمس كونكلين James CONKLIN

التي نشرها في كتابه " **أثر الجريمة**"« l'impact du crime » أن يلهما السياسات الأمنية لأغلب الدول المتقدّمة وعلى رأسهم بلدهم الولايات المتحدة، ولا أن يأخذا كل هذه الشهرة التي جعلتهما يرقّيان إلى درجة الأخصائي الوطني الخبير في الهيئات الرسمية.

فكرة "النافذة المكسورة" جد بسيطة ظاهريا تضمّنها المقال المذكور فيما يلي: "إذا بقيت نافذة في عمارة ما مكسورة ولم تصلّح فإنّ باقي النوافذ حتما سوف تكسّر عن قريب... في بضع سنوات، بل في بضعة أشهر يمكن لحي أن يتحوّل إلى غابة مروّعة... وعلى نفس طريقة النافذة المكسورة غير المصلّحة، والتي تفتح المجال لأفعال همجية، فإنّ السلوكات المنحرفة البسيطة أو السلوكات اللا- اجتماعية البسيطة غير المعاقبة سوف تخلق محيطا صالحا لجرائم أكبر". يصف المقال عملية الإقصاء - للمكان ولسكانه- الذي يحوّل كل حيٍّ غير معتنى به إلى فضاء مخيف. ويذكر المقال بحثا خاصا بالعملية الإقصائية، حيث أثبتت الدراسة أنّ ثلاثة أرباع الناس يقطعون الرصيف لعدم ملاقاة مجموعة الشباب المشتبه في سلوكهم، والماكثين في ذلك الرصيف، بينما النصف فعلوا نفس الشيء لاجتناب شاب واحد فيهم.

أثبتت الدراسة إذا أنّ العملية الإقصائية إنّما هي عملية اجتماعية معقّدة تسير بطريقة تراكمية، قد تأخذ منحى الكرة الثلجية إن تركت على حالها ولم توقّف في مهدها. هذه النظرية ساهمت في تحوّل سلوكات الشرطة تجاه الجريمة والمنحرفين إلى مرحلة "اللاتسامح". وقد طبّقت هذه المبادئ لأوّل مرّة في نيويورك، وبها عرف حاكم المدينة الإيطالي رودولف جيولياني Rudolph GIULIANI نجاحا منقطعا جعل منه الحاكم الأكثر شعبية في تاريخ مدينة نيويورك.

تحليلات كيلينغ وويلسن أعطت أهميّة كبرى للروابط الاجتماعية الجوارية. فلكي نتكفّل بالنظام العام الذي يشجّع غيابه على الانحراف المؤدّي إلى الجريمة وجب على الشرطة أن "تدعّم الآليات غير الرسمية لليقظة الاجتماعية"، التي لا يمكن للشرطة أن تحقّقها بنفسها. فعندما يكون الانسجام قويّا بين الجيران، فإنّ سكان الحي يلعبون وبطريقة طبيعية دور الحارس الاجتماعي، وفي هذه الحالة تقل إن لم نقل تنعدم آليات الانحراف. وهذا ما كان موجودا عندنا في الجزائر خاصة في الأحياء الشعبية ذات التقاليد المدنية، أين يتعارف الناس فيما بينهم إلى درجة أنّهم شكّلوا حاجزا أمام العملية الإقصائية المؤدّية إلى الجريمة، فالجرائم لا تقع أبدا داخل الحي الشعبي، لأنّ المنحرف و/أو المجرم موجود في حيّز مجالي لا يسمح له بممارسة نشاطه المفضّل، لذا فنشاطه يكون دائما خارج هذا المجال. لكن هذه الروابط الاجتماعية التي نتحدّث عنها أصبحت غير موجودة في كثير من الأحيان لاعتبارات عدّة، منها التحوّلات الديموغرافية العميقة التي عرفتها المدن نتيجة عوامل اقتصادية، سياسية واجتماعية عرفتها الجزائر خاصة في العشرية الموصوفة بالسوداء.

2- **المعرفة السوسيولوجية لتحريك الاقتصاد العالمي:** عرفت أفكار ميلتون فريدمانMilton FRIEDMAN الاقتصادية نجاحا باهرا، حيث انتشرت تدريجيا، وأصبحت مقبولة جدا في الأوساط السياسية انطلاقا من بداية الثمانينيات، فأثّرت على المحافظين والليبراليين في أمريكا على حدّ سواء. أفكاره الاقتصادية حول العملة النقدية، الضرائب، الخصخصة (وهو أكبر دعاتها وعلمها الأوّل)، وعدم التوازن ألهمت السياسات الاقتصادية للعديد من الحكومات عبر العالم خاصة حكومتي رونالد ريغان Ronald REAGAN، ومارغاريت تاتشر Margaret THATCHER.

طبّقت أفكار ميلتون فريدمان (يهودي أمريكي من أصول أوكرانية) لأوّل مرّة في الشيلي، ثمّ الأرجنتين، وفي الحالتين بطريقة جدّ عنيفة حيث قاد الجنرال بينوشي PINOCHET انقلابا عسكريا في الشيلي على الرئيس الاشتراكي سالفاتور أليانـدي Salvatore ALIANDE، ليحوّل الشيلي من الوجهة السوفياتية إلى الوجهة الأمريكية، وبالتحديد مدينة شيكاغو، وجامعتها التي أصبحت عاصمة للاقتصاد العالمي. أمّا في الأرجنتين، فلقد أطيح بحكومة إيزابيلا بيرون Isabella PERONE من طرف جماعة العسكريين التي أرادت أن تطبّق مبادئ الاقتصاد الحر الذي كان يدعو إليه فريدمان وأتباعه. وفي الحالتين فشلت السياسات الاقتصادية فشلا ذريعا أدّى إلى ظهور طبقتين متمايزتين في المجتمع، فئة صغيرة تملك كل شيء، وغالبية ساحقة تعيش في الحضيض. والملاحظ على الحالتين أنّ الحكومتين لتغطّي هذا الفشل اعتمدت على تخدير الناس بأمور تشغل بالهم لتنسيهم حالتهم البائسة، وكان المخدر الأساسي لعبة كرة القدم، حيث ساعدت الهيئات المختصّة فريق الشيلي لكرة القدم للتأهّل إلى كأس العالم 1974م، بمعاقبة فريق الاتحاد السوفياتي وحرمانه من المشاركة. أمّا الأرجنتين فحدّث ولا حرج، فلقد فازت الأرجنتين بكأس العالم 1978م على حساب المرشّح الأوّل هولندا، بعدما هُدِّد أحسن لاعبي المنتخب الهولندي بالقتل. وانتقلت أفكار فريدمان بعد ذلك إلى باقي دول أمريكا الجنوبية، لتدلّ على هيمنة مدرسة شيكاغو الاقتصادية على الاقتصاد العالمي بنسب نوعا ما كبيرة. لكن مدرسة شيكاغو هذه، وخاصة رمزها الأوّل ميلتون فريدمان تأثّر كثيرا بل كان مصدره المعرفي الأوّل لتحريك أفكاره الاقتصادية هو علم النفس في نظرية "العلاج بالصدمة" « thérapie de choc » التي أخذها من عالم النفس الكندي هيوالد كامرون Haywald CAMERON، وعلم الاجتماع من وجهتين: النمساوي فون حايك VON HAYEK والأمريكي ألبرت هيرشمان Albert HIERCHMAN (ذي الأصول النمساوية هو كذلك).

ويرى ألبرت هيرشمان أنّه لا يمكن التفكير في الاقتصاد بعيدا عن المؤسّسات، والقيم، والمصالح الخفيّة، والصراعات التي تنعقد بين القطاعات الاجتماعية. وفي مقابل نظرة لنمو

خطي ومتوازن لاقتصاد متحرّك عن طريق المنظّم الذاتي للسوق، تناول هيرشمان على العكس الاقتصاد بتعابير التوتّر والخلل، وعدم التوازن.

لقد ألهمت أفكار هيرشمان ميلتون فريدمان في تدعيم أفكاره الاقتصادية التي نال عليها جائزة نوبل سنة 1976م. حيث إنّ نجاح الأفكار الاقتصادية لمدرسة شيكاغو لم يكن إلاّ عبر "العلاج بالصدمة" « thérapie de choc »، أي بالأزمات والتوتّرات الاجتماعية المصطنعة في الشيلي، ثم الأرجنتين، ثم العديد من الدول في أمريكا الجنوبية، وفي غيرها، مثل ما حدث في مصر انطلاقا من نهاية الثمانينيات. وعوض أن تنجح الأفكار الليبرالية المحضة في مجتمعات ديموقراطية، نجحت في أنظمة أوليغارشية تسلّطية. ولما نتحدّث عن النجاح هنا، لا نقصد طبعا النجاح الفعلي لهذه النظريات في الواقع، كأن تحقق الرفاه الاقتصادي، بل نقصد النجاح في إقناع الحكومات بجدواها ومحاولة تطبيقها.

3- **المعرفة السوسيولوجية في وسائل الإعلام:** تحصّل بول لازارسفلد Paul LAZARSFELD على هبات من هيئة روكفيلار Rockefeller ليؤسّس بمساعدة فرانك ستانتون Franck STANTON مدير أبحاث القناة الإذاعية CBS ما سماه "هيئة الأبحاث الإذاعية" التي كانت تهدف إلى دراسة سلوكات مستمعي القنوات الإذاعية.

اشتهر لازارسفلد كثيرا في أمريكا- وهو النمساوي الأصل- بعد أبحاثه الأمبريقية حول تأثيرات وسائل الإعلام، إلى درجة أنّ الأمبريقية التي اشتهرت بها السوسيولوجية الأمريكية تنسب إليه. وكانت أعماله قائمة بمعيّة فرانك ستانتون، وصديق العمر هادلي كانتريل Hadley CANTRIL، وكانت تهدف إلى إثبات تأثيرات وسائل الإعلام على سلوكات الأفراد في طريقتهم الاستهلاكية، والانتخابية، وأيضا في طريقتهم في سماع المذياع، ومشاهدة التلفزيون، وقراءة الصحف والمجلات. وكانت لأبحاث لازارسفلد آثار كبيرة جدّا على الحقل الأكاديمي، حيث لم تعد وسائل الإعلام مجرّد وسائل ترفيهية، بل أصبحت من أهم المؤسّسات الإيديولوجية للدولة، كونها وسيلة تعبيئية تمكّننا من التحكّم - النسبي على الأقل- في سلوكات الأفراد والجماعات. كما كان لأعمال لازارسفلد تأثير عميق في الحقل الإعلامي الذي تحوّلت قنواته، وأدواته إلى الخصخصة الموضوعاتية الأكثر تأثيرا على جمهور المتلقّين. وهي الفكرة التي تلخّصها عبارة لازارسفلد الشهيرة "القنوات الإذاعية تختار جمهورها قبل ان تؤثّر فيه".

4- **المعرفة السوسيولوجية في المؤسّسة الصناعية: تجارب هاوتورن** les expériences de Hawthorne: لقد أقيمت تجارب هاوتورن المعروفة أكثر بأبحاث الوسترن إلكتريك كمباني western electric company. وهي مؤسّسة كما يدل عنوانها عليها تصنع الكوابل

الكهربائية موجودة بالقرب من مدينة شيكاغو. أقيمت هذه التجارب ما بين سنتي 1927 و 1932 تحت إشراف إطارات من هذه المؤسّسة، وفريق بحث من علماء الاجتماع من جامعة هارفارد في بوسطن تحت إشراف إلتون مايو Elton MAYO. ولقد نشر التقرير النهائي لهذه التجارب سنة 1939 تحت عنوان "التسيير والعامل" من طرف روتليسبرغر ROETHLISBERGER وديكسون DICKSON رغم أنّ ملخّصات لنتائج الأبحاث قد قدّمت قبل ذلك في مؤلّف مايو "المشاكل الإنسانية والحضارة الصناعية".

ومن أهم نتائج هذه الأبحاث أنّ الكفاءة العالية، والمعروفة بإدارة الأشخاص ضرورية في العملية الصناعية. وأنّ العلاقات الإنسانية والاتصال في المؤسّسة الصناعية قد تكون أهم من عملية الإنتاج نفسها في الرفع من المردودية. وقد عرفت هذه الأبحاث نجاحا باهرا في الوسط الصناعي الأمريكي، ثم الأوروبي إلى درجة أنّها حوّلت وغيّرت القوانين الخاصة بالعمل. ولا توجد اليوم في العالم المتحضّر بأسره مؤسّسة اقتصادية ناجحة تخلو من مصطلحي "إدارة الوقت" أو "تسيير الموارد البشرية".

5- **المعرفة السوسيولوجية في التنظيم العسكري والجيش:** عيّن عالم الاجتماع الشهير ساموبل ستوفر Samuel STOUFFER مديرا مدنيّا لمصلحة بحثية أنشئت مباشرة بعد أحداث بيرل هاربور Pearl Harbour (أين هاجم السلاح الجوي الياباني القاعدة العسكرية الأمريكية Pearl Harbour في المحيط الهادي وألحق بها خسائر فادحة، وكانت هذه الأحداث السبب في دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء)، وهي الوحدة التي أصبحت اليوم تدعى " **قطاع الإعلام والتربية في جيش الولايات المتّحدة**". وقد قام ستوفر بعمل بحثي جبار أوفى أكثر من 500 ألف مقابلة، واستمارة مع أفراد الجيش الأمريكي خلال الحرب العالمية الثانية. وقد كانت دراسته تهدف إلى تحليل مواقف الجنود الأمريكيين.

لقد خلصت هذه الدراسة المعنونة "**الجندي الأمريكي**" « the American soldier » إلى أنّ العوامل النفسية الاجتماعية مهمّة جدّا في تحديد النتائج الحربية، فلا يكفي أن نمد أفراد الجيش بالعتاد والعدّة اللازمة لنضمن نتائج جيّدة في أرض المعركة، بل وجب أن نضمن لأفراد الجيش قنوات اتصالية تمكّنهم من ربط يومياتهم مع أفراد عائلاتهم الذين تركوهم في الولايات المتّحدة للرفع من معنوياتهم، وجعلهم يشعرون بالوطنية كونهم يخدمون الوطن والأهل.

وتبقى هذه الدراسة نموذجا بارزا من نماذج الأبحاث الكميّة في الولايات المتّحدة، وفي غيرها. ومن نتائجها أنّ الجيوش المنظّمة اليوم أصبحت لا تخلو من الأخصائيين النفسانيين والاجتماعيين.

إنّ هذه النماذج المقدّمة عن المعرفة السوسيولوجية خارج الجامعة في أمريكا (وهي للذكر لا الحصر، لأنّ المعرفة السوسيولوجية في أمريكا امتدّت إلى كل المجالات الحياتية من الأسرة،

والتربية والعلاقات الزوجية إلى التاريخ والسياسة) إن دلّت على شيء إنّما تدل على أنّ التفوّق الحضاري الأمريكي اليوم لم يكن صدفة، ولا ضرب خبط عشواء. إنّما القضيّة أنّ الأمريكان قبل غيرهم من الدول المتحضّرة أدركوا الأهمية الكبيرة للمعرفة العلمية في العلوم الإنسانية والاجتماعية في تحديد الوجهة الحضارية لمشروع المجتمع، فالحضارة لا تعني التكنولوجيا والعلوم الدقيقة فحسب، بل تتعدّاها إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تدرس جوهر الإنسان المؤسّس لهذه الحضارة. ثم إنّ التفوّق الأمريكي هذا الذي أعطي للثقافة العالمية خصوصيات الأمركة لم يكن بالتحكّم في العلوم الدقيقة والتكنولوجيا، لأنّ هذه الأخيرة عادة ما كان التفوّق فيها أوروبيا، وبالتالي نقول إنّ الذي ساعد الأمريكان اليوم ليكونوا الدولة الرائدة هو اهتمامها الكبير بالعلوم الإنسانية والاجتماعية منذ نهاية القرن التاسع عشر وإلى اليوم.

القائمة البيبليوغرافية:

- بالعربية:

1- ابن خلدون، عبد الرحمان. **المقدمة**، بيروت: دار القلم، الطبعة السابعةن1979.

2- أنطوني غيدنز. **علم الاجتماع**، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، تر: فايز الصياغ، الطبعة الأولى، 2005.

- باللغة الأجنبية:

3.ANSART (Pierre). **les sociologies contemporaines**, Paris: Ed. seuil, 1990.

4.BERTHELOT (J-M). **la sociologie française contemporaine**, Paris: PUF, 2000.

5.CAPLOW (Théodore). **l'enquête sociologique**, Paris: Armand COLLIN, Seconde édition, 1970.

6.CASTEL(Robert). « *la sociologie et la réponse à la demande sociale* », **sociologie du travail,** Paris: Armand COLLIN, tome2, 2000.

7.COLEMAN (James). «*social research and theory of action* »in **American journal of sociology**, 1986.

8.DELLAS (Jean Pierre) et MILLY (Bruno). **histoire des pensées sociologiques,** Paris: Armand COLLIN, troisième édition, 2010.

9.ELIAS (Norbert).**qu'est-ce que la sociologie?** Paris: ed de l'aube, 1991.

10.GAY(Thomas).**l'indispensable de la sociologie,** Paris: studyrama, 2004.

11.GIRAUD (Claude). **histoire de la sociologie**, Paris: ed, l'harmattan,

12.Série « que sais-je? » 1987.

13.KELLING (G-L), WILSON (J-Q), « broken windows », **the atlantic monthly,** Mars 1982.

14.POLLAK(Michaël). **paul lazarsfeld, fondateur d'une multinationale scientifique,** Paris: actes de la recherche en sciences sociales,1979.